

الصيد البحري والمجتمع الصحراوي بالصحراء

: مقارنة سوسيو تاريخية

عبد الحق البرغزي

جامعة ابن طفيل، المغرب

ملخص

يعالج المقال أهم التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتھا منطقة الصحراء، ومن بين هذه التحولات نجد قطاع الصيد البحري والتطرق فيه إلى المجموعات البحرية التي كانت تمارس هذا النشاط والتي تدعى إيمراكن، يظهر جليا أن إيمراكن ائتلاف جماعي من أصول اجتماعية مختلفة جمعتهم الحرفة ومكان الممارسة الاقتصادية، يقول بول مارتى " إيمراكن هم حياة، وأعراف خاصة، يعيشون وسط الرمال على الشواطئ وداخل خيام ليست بالواسعة أو في كهوف بالشواطئ" وتستعمل أدوات الصيد تقليدية وبسيطة في الصيد البحري، كما يتطرق المقال إلى دور السمك في الغذاء بالنسبة لسكان السواحل الصحراوية، و دور المرأة الصحراوية والتي كانت تحظى بدور مهم جدا خصوصا في عملية الإنتاج البحري.

كلمات مفتاحية: الصيد البحري، المجتمع الصحراوي، إيمراكن، بول مارتى، المرأة الصحراوية.

Résumé

Cet article aborde le sujet de la pêche dans la région du désert et traite de certains des groupes qui ont pratiqué cette activité maritime avec des méthodes traditionnelles. Il aborde également comment pêche traditionnelles méthodes pratiquent par ces groupes humains qui pratiquent cette activité maritime et cette relation poétiquement humain article met en évidence la mer et le désert, et traite également des mutations techniques et sociales la pêche au cours de la coloniale.

عرفت الأقاليم الجنوبية عدة تحولات سواء من الناحية الاقتصادية وحتى الاجتماعية، وذلك من خلال تحول المجتمع الحساني من نمط الرعي الترحالي إلى الاستقرار بالمدن الساحلية وهذا جاء نتيجة توالي سنوات الجفاف والتصحر منذ ستينيات القرن الماضي زيادة على ذلك التوتر السياسي والعسكري الذي عرفته المنطقة منذ منتصف السبعينات، وعلى إثر النزوح لبعض قبائل الصحراء نحو المراكز الحضرية المحدثّة في المنطقة، عرفت نوع من التقسيم الإداري وإقامات عدة منشآت إدارية وعمرانية وبنيات تحتية ومصالح اجتماعية وثقافية وأمنية كان الغرض منها دعم الدولة والمبادرة المركزية، كل هذا له انعكاس على البناء الاجتماعي التقليدي والمناشط الاقتصادية وكذا التصورات الاجتماعية، وتأثير وسائل الاتصال الجماهيري، وفي مفهوم النقود والعمل المأجور والرعي، وفي خضم هذه التحولات برزت عدة مناشط اقتصادية جديدة من حيث عدد العاملين بها وانفتاح على العالم الخارجي وإفراز لنزوح جماعي من مناطق مختلفة من داخل المملكة إلى الشواطئ الصحراوية، لذا سنركز على المجموعات البشرية التي تعاطت للنشاط البحري وخاصة الممارسة كإنتاج وكتبادل وكفعل مكمل لاقتصاد بدوي قائم على استراتيجيات متعددة ومتداخلة كالرعي والترحال والحروب والتجارة والصنائع الحرفية وهذا بدلا عن ما سارت عليه الأبحاث في الجامعات وعند العديد ممن كتبوا عن هذه المنطقة وكان تركيزهم على قول الشعر والنثر بدل الحديث عن المناشط الاقتصادية وجزيئات الحياة اليومية لسكان الصحراء خاصة الفئات الاجتماعية الهامشية والمهمشة والتي يظل لها الفضل في استمرارية المجتمع الصحراوي أمام غوائل الطبيعة وعوادي الزمن من مجاعات وجفاف ونهب.

والملاحظ أن الصيد البحري لم يعد يشكل صناعة استخراجية فقط للمنتوجات الطبيعية، ولكن أصبح صناعة تحويلية والتي تتحول بدورها إلى تجارة توزيعية، ومنه فإن مختلف منتوجات الصيد البحري تشكل حجما هائلا من المشتقات الموجهة إلى تغذية الإنسان أو القطيع أو صناعة البذور، لذا ارتأينا التفكير في دراسة التحولات الحاصلة في ممارسة الصيد البحري ونوعية الذين يمارسونه والتقنيات المستعملة في صيد الأسماك والرخويات وأثار ذلك على المنطقة والسكان، لأنها مواضيع تبدو في رأي المتواضع تستحق الدراسة والتحليل خاصة أن هذا القطاع يعتبر من الميادين الاقتصادية التي تعتمد عليها منطقة الصحراء، لذا وجب من لحة تاريخية عن طبيعة ممارسة الصيد البحري بالمنطقة وكيفية التعااطي مع البحر من خلال الوقوف على بعض النصوص الموروثة رغم قلتها دون نسيان أيضا التصورات الاجتماعية التي كونها المجتمع الصحراوي عن الساحل والبحر بصفة خاصة.

● ما هي خصائص الصيد البحري التقليدي بمنطقة الصحراء ما قبل الاستعمار الاسباني؟

● ما هي ابرز التحولات التقنية والاجتماعية التي حصلت أبان الهيمنة الاستعمارية ؟

المبحث الاول: الصيد البحري التقليدي ما قبل الاستعمار:

أول ملاحظة يتم تسجيلها عند رجوعنا الى المصادر التاريخية المتعلقة بالمنطقة نكاد لا نجد حديثا عن الصيد البحري بالسواحل الصحراوية، ذلك أن المصادر المحلية سواء مغربية أو شنقيطية كثيرا ما انصب اهتمامها بأوضاع الزوايا والعلوم الدينية والعلاقات ما بين المجموعات الاجتماعية الرحالة أكثر من الحديث عن الصيادين و" أهل لبحر "، وذلك منذ أن ظهر الى الوجود كتاب الوسيط في تراجم أدباء شنقيط للفقيه أحمد بن الامين الشنقيطي (ت1911) بالقاهرة، حيث لا نجد سوى بعض الادبيات الشعرية التي قالها سيدي محمد بن الشيخ سيديا الأييري أثناء سفر له إلى أبناء دليم حين يقول عن أرض الساحل:

عين رودي لترى ما لم ترى	ذلك البحر وذى أكم متى
كنت من قبل تخالين البرا	قبل الغرب انتهت عند فوى
ولك اليوم منادي بها	فأسرحي فيها ترى ما لم ترى
يرسل البحر علينا ريحه	ونداه كل صبح وعشى
ونرى الطير به نحسها	إبلا ترعى بحمض ونصي

وله أيضا:

طال في أربع القرار قراري	ليت شعري مالي و ما للقرار
طال مكثي وإنما طال فيها	باختيار المليك لا باختيارى

بل رمتني لها يد الأقدار

لم أك مزعم القدوم إليها

وخلاها الليل بالأسحار

سئم القلب بردها ونداها

وجذوعا بها كحد الشفار¹

وصفيا بها كحد المواسي

من هنا يتبين لنا من خلال هذه الأبيات أن صاحبها يصف أرض الساحل الرطبة والخشنة الحجارة وهذه نظرة شاعر بدوي مارس وألف الترحال والإقامة بمناطق داخلية.

ولا نجد شيء يذكر عن الصيد البحري التقليدي إلا موسوعة حياة موريتانيا للمؤرخ الراحل المختار بن حامد الذي أسرف في الحديث عن الصيد بمختلف أنواعه "بتراب البيضان" وعن الجماعات البشرية التي تمارسه حيث يقول عن مجموعة إمبراكن: "...إنما يطلق اسم إمبراكن على الذين لا يستعملون الزوارق بل ينصبون شباكهم أمام الحوت إذا رجع من نجعته فيجعلون في أسفلها شبه خرزات ثقال من الطين المحروق يسمونها (ايدان)، فتصل الشبكة بالطين فلا ينفذ السمك من تحتها، ويجعلون في أعلى الشبكة أعودا مثقوبة من (الفرنان)/اليتوع باللغة العربية، تمنع الشبكة من أن تغوص في الماء" ويكمل حديثه عن السمك: "وحوت إمبراكن نوعان حوت أرض وهو الذي لا ينتجع، وحوت مشي وهو الذي ينتجع فمن حوت الأرض (ايفرا) و(تاونيت) و(بازدوله) و(الريقط).

وأما حوت المشي فمنه: (أزول) وهو أجوده يمتاز بحمرة عينه وبعضه يرجع من نجعته في الخريف ويكثر في كبد الشتاء وينقطع في الربيع و(أكمل): وهو نوعان أبيض يأتي في أول الربيع، وأحمر يأتي في آخره، (واغساو) و(ايكيت) و(المليسة) و(المديسم) و(بوغنفاره) وهذه خريفية و(ايكير) ويمتاز بكثرة عظامه وشوكه ومنه ربيعي وصيفي وخريفي.

وأما حوت الدحل فمنه (تكاوه) و(انتض) وهذا في شمال تانودارت ومنه:

تواجيت والمليح² وهنا يصف المختار بن حامد كيفية صيد إمبراكن للسمك وأنواع هذا الأخير لكن كل هذه النصوص الشنقيطية لا تقدم ما يكفي من المعلومات حول هذه المجموعات البشرية خصوصا طبيعة العلاقة التي تكونها هذه

¹ - الشنقيطي، أحمد الامين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، مطبعة الخانجي، مصر، 1998، ص 265.

² - بن حامد، المختار، حياة موريتانيا (الجغرافيا)، منشورات معهد الدراسات الأفريقية، الرباط، 1994، ص 115.

المجموعات مع البحر ولا كيفية استهلاك السمك وتبادلته مع المجموعات الاخرى وكذا عدم ذكر طبيعة علاقة الناس بالبحر البحري من خلال التصورات الاجتماعية والسلوكيات اليومية.

والملاحظ أن هناك ثرائاً محلياً آخر يتجلى في الرواية الشفهية المحملة بكمية هائلة من النصوص الشعرية الشعبية الحسانية والامثال السائرة والتمثيلات القيمية ذات الدلالة البليغة خصوصاً من خلال الوقوف على علاقة الانسان الصحراوي بالبحر حيث كان يلتجأ له في فترات الشدة والجفاف وفناء القطيع، كما أن الصيد البحري التقليدي كان من بين أهم الأنشطة الاقتصادية المهمة التي زاو لها السودانيون في منطقة النيجر الاعلى وقد احتكر شعب البوزو وطبقة السمن (طبقة صيادي السمك) وظيفة كل ما يرتبط به، وكان الصيد يمارس من طرف السمن والبوزو على مدار السنة، ويعتبر بمثابة المصدر الرئيسي لعيشهم ولم تكن لهم الحفلات الخاصة بافتتاح أو انتهاء موسم الصيد، وكل ما عرفوه أصلاً هو التميز بين الصيد العادي الذي لا يخضع للتوقف، وأنواع الصيد التي توصف بالكبرى (les grandes peches) والتي تتم في فترات مختلفة من السنة وتصاحبها عدة طقوس مختلفة.³

لذا نجد في الحكايات الشفهية مادة مهمة من المعلومات الاجتماعية والثقافية والممارساتية حول علاقة الصحراوي بالبحر وبالسمك، خاصة اننا مجتمع اعتمد على ما هو شفهي في التواصل، زد على ذلك أن هذه المرويات الشفهية متواترة حيث يستخلص منها مواقع الصيد البحري والعلاقات فيما بينها والمجموعات الرحالة.

وتجدر الإشارة إلى أننا سنركز هنا على القرن التاسع عشر من خلال المدة الزمنية ما قبل الاستعمار، ومن بعض المرويات الشفهية الواردة في هذا النص الحساني:

نختير انسوحل يغير أبشرط	نوحظ بين المكسم والخط
ومن الخط انج هل الشط	ونعدل فهل الشط أخو
ونتحزم بشريجة من كرت	وانغير إلين أنخاف نموت
ونترك من لبحر متلطط	رافد كف الشبكة مزفوت

³- أوشن، خالد، النشاط الاقتصادي في النيجر الأعلى من سنة 1230م إلى سنة 1591م، أطروحة لنيل الدكتوراة في التاريخ، مرقونة بكلية الآداب بالرباط، سنة 2000/2001،

من الحوت الحي يلتقط
وأنصل لوقات انفرط
ونكعد بين أيدين العز
انصوع القوت وهي تبلع فيه
ومن الحوت الميت واسكوت
نتيمم بين الناس أحفوت
وانتم نبلع فلحوت
أمن فم الحوت اتم الا يبلع حوت⁴

من خلال الوقوف على هذا النص الشعري نجد صاحبه يصف حالة رجل من البدو جاء إلى الشاطئ كان يحترف الصيد البحري ضمن مجموعة إيراكن بل صاهرهم وهذه الحالة طالما كانت تقع أيام الجفاف والتوتر في العلاقات العائلية والقبلية، زد على هذا يبرز دور السمك في الغذاء بالنسبة لسكان السواحل الصحراوية، وتجدر الإشارة إلى دور المرأة الصحراوية والتي كانت تحظى بدور مهم جدا خصوصا في عملية الإنتاج البحري مثلا في مناطق الخليج كان الصيادين ينتظرون فترة المد البحري المسماة " تيكري " حيث تتميز بشكائر السمك خصوصا بالاساركا ورأس بوجدور وانتيرفت بعد ذلك يأتي الصيادون بالأعشاب ويغلقون ممرات الخليجان عند الجزر (أمرز) يعود الماء إلى البحر وتبقى الأسماك عالقة بالنباتات ويبدأ الصيادون في جمعها.

أما الطريقة الثانية فتتجلى في كيفية استعمال الشباك حيث نجد رجلا يقومون بالدخول إلى البحر وكل واحد منهما يمسك برأس الشبكة ويتعرضان لسرب الأسماك ويديران به الشبكة ويأتیان به، وكانت الأسماك تتواجد بكثرة وبأنواع متعددة وهذا ما أشارت له الكتابات الأجنبية الفرنسية والاسبانية وكذا الرواية الشفهية المحلية. وقد أولى الايريبي اهتمام خاص بالسواحل الصحراوية حيث نجد بعض البرتغاليين يتحدثون عن المجموعات البشرية التي كانت تمارس الصيد البحري وكذا مناطق رسو البواخر، كما نجد بعض بقايا السفن المتحطمة على سواحل وادي الذهب دليل شاهد على ذلك الاهتمام القديم، كل هذا يدل أن الأرض الشاطئية لم تكن ارض خلاء لا مالك لها بل كان بها نشاط بحري عريق وتجارة عابرة للصحراء وتدير نفعي للمجال⁵.

⁴ - دحان، محمد، الصيد البحري والمجتمع الصحراوي بجهة وادي الذهب-الكورة، مرجع سبق ذكره، ص243.

⁵ - محمد دحان، الصيد البحري والمجتمع الصحراوي بجهة وادي الذهب - الكورة: مقاربة سوسيو تاريخية، مجلة الاداب والعلوم الانسانية، القنيطرة العدد 10، 2012، ص245

ويظهر جليا من خلال تأملنا للكتابات الفرنسية والاسبانية حول السواحل الصحراوية أن منطقة وادي الذهب، كانت محطة اهتمام الدول الغربية، خاصة الكناريين وذلك لدفع تيارها البحرية وملائمة شواطئها للرسو السفن. ولعل من أهم الذين مارسوا مهنة الصيد البحري بمنطقة الصحراء نجد مجموعة إمراكن والتي تنفرع إلى البطون التالية⁶:

إمراكن:

جدول يبرز أهم المكونات التي مارست الصيد التقليدي في الصحراء

البطن	الانتماء
• أهل لحيمدة	• من قبيلة الكرع
• أهل اعميرة	• من الشناكلة
• اشلوحة	• ايت لحسن
• أهل بولكناس	• أولاد أبي السباع
• أهل الشويخ	• باسين موريتانيا

يظهر جليا أنه ائتلاف جماعي من أصول اجتماعية مختلفة جمعتهم الحرفة ومكان الممارسة الاقتصادية، يقول بول مارتي "إمراكن لهم حياة، وأعراف خاصة، يعيشون وسط الرمال على الشواطئ وداخل خيام ليست بالواسعة أو في كهوف بالشواطئ"⁷

وتستعمل أدوات الصيد تقليدية وبسيطة من بينها الشباك التي كانت منتشرة الاستعمال، وهي نوعان: الأول صغير جدا وهو المجلوب من سوس أو عن طريق التبادل مع الكناريين، أما النوع الثاني فه أكبر حجما من الأول من صنع محلي بنبات نسيجي يدعى تيتارك⁸ كما تصنع بخيوط القنب أو القطن. في حين كان شعب البوزو يستعمل الخيوط والقفات والشبكة من نوع كنكو/Kango التي يصطادون بها الاسماك في السهول، وكذلك فحما يسمى كويبي/Koubié بالإضافة إلى الخطاطيف

⁶-Flores Morales Angel, EL Sahara Espanol,madrid,p,98.

⁷-مارتي، بول: م،س، ص 179.

⁸- بن حامد، المختار، مصدر سبق ذكره، ص 17.

التي تصلح للاصطياد وفي فصل الشتاء يصبح استعمال الشبكات صعبا في نهر النيجر بسبب قوة التيار المائي في قاع النهر، وأثناءها تدخل معظم الأسماك إلى سواعد الأنهار وفي السهول حيث تشكل فيها النباتات عائقا حقيقيا أمام استعمال أدوات الصيد المختلفة، ويستغرق هذا الفصل حوالي ثلاثة أشهر، يتبدأ من شهر غشت إلى نهاية شهر نونبر، وخلال هذه الفترة يقوم الصيادون بإعداد وإصلاح أدواتهم أو صنع الشبكات الجديدة استعدادا للعمليات القادمة، كما أنهم يبذلون مجهوداتهم إلى جانب ذلك من أجل اصطياد بعض أنواع الأسماك بطرق صعبة ولكنهم يبيعونها بأثمان بخسة.

ونجد هناك أداة للصيد السمك وهي المضمار أو الزل من صنع محلي، وخلال عملية الصيد نجد أن الصياد يكون خفيفا ولا يرتدي سوى سترة خفيفة تحت حزامه من الجلد أو من الثوب، ويدخل في الماء غلى حد السرة.

وهناك نوع آخر من الشباك يبلغ متسع عيونه 6 سنتيم، وهو المسمى أبحرال، ونوع: إيدار (جمع إيدران) ويبلغ متسع عيونه 4 سنتيم، ثم هناك العمود الذي تنصب عليه الشبكة ويدعى: بار (جمع البار) زد على هذا "المعيدي"، أو "التيفانة"، (من الفلين) قصد السباحة أو لوضعها في أعلى الشبكة داخل البحر، والايديان (حجارة من الطين) لوضعها في أسفل الشبكة. في المقابل ذلك كان في النيجر الأعلى الصيد البحري التقليدي من شؤون الأفراد والعائلات المنعزلة والتي تعتمد على الصيد النهري والقاطنين في الغالب قرب المياه القريبة من قراهم، في هذه الحالة يكون الصيد خاضعا لأصحاب الماء، وإذا كان انفراديا فكل واحد يحتفظ بكل ما يحصل عليه من الأسماك، أما في حالة الصيد الجماعي فتتم عملية تقسيم حصص ما تم اصطياده مباشرة بعد الانتهاء تحت الإشراف المباشر "الرئيس الصيد"، ويأخذ هذا الأخير حصته من ما تم اصطياده من الأسماك ليوزعها على أطفاله وأطفال ذويه وأصدقائه والمساعدين العاملين معه بلا مقابل، ثم يقسم ما تبقى من الأسماك بين الصيادين وأصحاب الآلات والشبكات والقوارب، وتكون طريقة التقسيم وعدد قيم الحصص المصطادة من الأسماك مختلفة باختلاف مكونات كل مجموعة والتي تكون قارة حسب الفصل، ويمكث العزب للعمل لفائدة رب العائلة الذي يكون دائما صيادا في غالب الأحوال كما يكون كذلك صاحب الشبكة والقارب. وعندما تنتهي عملية تقسيم وتوزيع الحصص تقوم النساء بحمل الأسماك المصطادة إلى أماكن المعالجة، ويشغلن لفائدة أزواجهن.

ومن أنواع الأسماك الموجودة في الصحراء :

- تكاوة/بوري
- إينجوكر
- الفشة
- أبلاغ
- أدس
- سردين
- أزول
- تنويزت
- أدماس
- أولاح
- كرامة (calamar)
- أكمل
- كوربين
- أكنياو
- تمندرت
- أحمارت لبحر(المعزة)
- توف
- أمير(mero)
- أمتوار
- التيزلت
- أغمامير...
- كاصون(كلب البحر)

كان إمبراكن يقومون بعملية تخزين الأسماك وحفظها عن طريق فتح السمكة من ظهرها وفصل رأسها عنها

وإفراغ بطنها وتعريضها للشمس حتى تجف، وبعد ذلك يتم عزل بعضها عن بعض على أساس الأحسن والأجمل منظرًا، وهذا النوع هو الذي يتبادلون به مع المجموعات القبلية الأخرى وكان ينقل في بعض الأحيان حتى منطقة أدرار التمر.

وكانت هذه المجموعات البشرية تقتات من السمك سواء الطري منه أثناء الدخول إلى الماء، أو جافًا محفوظًا عندما يكون المد البحري قويًا حيث يتعذر الدخول إلى البحر طيلة عدة أيام بل يصل إلى أسابيع متوالية وفي حالة انتهاء هذا المخزون السمكي المجفف نجد باقي الجماعة تنهافت على بقية المنتوجات البحرية التي عادة ما تكون منبوذة مثل: الصرنبك (Anatifes) والاختبوط (poulpe) وسلطعون (crabes)، وتوتيا البحر (Oursin) كما يتهافون على مختلف الرخويات كالخار وبلح البحر (Moule) الصدف (Arapédes)، والقفالة (Clovises)، وهذا في فترات المجاعة.

وعملية تجفيف الأسماك لها أدواتها الخاصة فنجد رافع صغير لنشر السمك يدعى تاكودي/جمع تيكودان، وهناك رافع كبير يدعى محمل (جمع لمحمل) وشبكة يفرق فوقها السمك تدعى: اسكيل/جمع إيسكلان، ومجموعة أغصان من الأشجار ينشر فوقها السمك تدعى: اشوجر/جمع اشواجير، ثم حقيبة أو شبكة لنقل السمك تسمى اكسري/جمع أكساوي.

وتشير بعض الكتابات الأجنبية أن إيمراكن كانوا يؤدون إتاوة وضرائب للقبائل الحامية، خصوصا ما كان موجودا بإمارة الترازة بموريتانيا، كما كانت سواحل موريتانيا تعرف ضرائب ومغارم كانت مفروضة على ممتهي حرفة الصيد البحري من قبيل التجكريت/وهي عشر الأسماك المصطادة.

أما بالنسبة لسلوكات إيمراكن تجاه الغرباء من القبائل الأخرى فقد تميزوا بإيوائهم للمهاجرين والباحثين على العيش بجوارهم على حسب قول الدكتور محمد دحمان، وما يركي هذا هو قول الضابط الفرنسي لوط "إن إيمراكن برهنوا على قدرة هائلة على الضيافة تجاه القدمين الجدد للاستقرار بجوارهم في انتظار حظهم"⁹. ولعل هذه الأخلاق هي السبب وراء دخول أفراد جدد إلى هذه الطائفة من الناس التي تمارس الصيد البحري، أو تنتقل من هذه الحالة إلى حالة أخرى وهذا دليل على أن المجتمع الصحراوي ليس مجتمع فئات منغلقة ولا منعزل بل يعرف نوع من الليونة والمرونة في تراتبه الاجتماعي، والملاحظ أن ما يحصل عليه إيمراكن من سمك وما يعالجونه منه عن طريق التحفيف لم يشكل دائما ثروة توفر فائض إنتاج مادي بل ظل هذا المنتج المحلي يلبي حاجيات المجتمع من غذاء ومنه فأن هذا يعتبر اقتصاد القلة الذي يرتبط بضعف وسائل الإنتاج وتحكم الظروف الطبيعية والاجتماعية في مختلف مراحلها، الشيء الذي نجم عنه غياب تراكم معرفي عن هذه الفئة الاجتماعية من المجتمع الصحراوي رغم ترحلها الدائم عبر الشواطئ وتفاعلها مع عدة مجموعات بشرية أخرى إلا أن جاء الاستعمار الإسباني وبدأ في استغلالها.

⁹ -Lieutenat, Lotte "coutumes des imraguen" in: Journal de la Société des Africanies,T ;VII,Fasc,1,1937,p50.



نساء إمبراكن يقوم بتجفيف الأسماك

المبحث الثاني: الصيد البحري في عهد الاستعمار:

تعتبر الشواطئ الصحراوية من بين أغنى بحار العالم بالأسماك المتنوعة والمتعددة، ويشير الباحث روبان (J.Robin) إلى أن البيضان وأن كانوا من كبار الرحل الجمالين، ورغم غمط عيشهم وحضارتهم البعيدة عن المجال البحري فإنهم لم يكونوا أبداً يجهلون وجود هذه الثروات، بل كانت هذه الأخيرة رهانا دارت حوله مواجهات متعددة فيما بين القبائل.¹⁰ كما كانت المنطقة الساحلية مسرحاً لالتقاء قديم بين مجموعات بشرية مختلفة بل يصل الأمر إلى لغات وديانات وحضارات، ومنه فإنه مجال أيضاً للقاء بين نوعان متباينان من التقنية.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك صراع ما بين السكان الأصليين والكناريين الذين ألفوا ارتياد هذه المخازن السمكية، حيث منحت القبائل الاذن للكناريين قصد الصيد بمياه المنطقة وذلك بمقابل مادي كانوا يسمونه "حرمة" يؤدي للقبيلة المعنية في

¹⁰ -Robin, J, Maures et Canariens sur les Cotes du Sahara Occidental in: Notes Africaines, N 86, 1955, (p.101).

شكل مجموعة من الأسماك أو أكياس من دقيق الذرة المسمى كوفيا¹¹ التي كانت أساس الغذاء التغذية عند الكناريين وكان البيضان يحبونها.

كل هذا نتج عنه علاقة نسجها الكناريين مع شواطئ وادي الذهب حيث كانوا يتوفرون على أسطول بحري للصيد يتكون من حوالي 75 قاربا وسفينة شراعية مربعة تبلغ حمولتها ما بين 25 إلى 60 طنا وهذه القوارب تسجل بلانثروبي (lanzarote) وفونتي بنتورا وهي الصغيرة كل واحد منها يحمل على الأكثر خمسة عشر رجلا، أما القوارب الشراعية الأكبر حمولة فكانت مسجلة بتريفي وخاصة بكران كناريا (Canaria Gran) وتحمل ما يفوق عشرين رجلا.

وقد قامت الشركات الاسبانية أيضا التمهيد لاحتلال المنطقة الصحراء خصوصا وادي الذهب بغية تأمين رعاياهم عند الرسو بشواطئ الساحل الصحراوي، لذا نجد أن الاحتلال العسكري كانت وراءه ضرورة حماية صيادي جزر الكناري الذين يستغلون مخزون الساحل وتجنبهم خطر السقوط في يد أبناء الصحراء¹²، لذا نجد أنه بعد حملات استكشافية بالمنطقة وباتفاق مع الفرنسيين نزل الضابط بونللي بشبه جزيرة الداخلة وأقام بها مركزا للحراسة وكذلك في رأس سنترا بداية للاحتلال العسكري للمنطقة، لكن مقاومة القبائل منعتهم من ذلك لبعض وقت من الزمن خصوصا إلى حدود 1900م.

لكن رغم ذلك فإنه لم يمنع الكناريين في الاستغلال المكثف للثروات البحرية بخليج الداخلة، يقول في هذا الصدد الضابط خورخي نويث¹³ "إن مراكز هذه المصايد الغنية هو: بياثيسروس (Villa-Cisneros) ذات الظروف الطبيعية الملائمة دون نسيان مرسى لاسركا الذي يعتبر مركز حيوي لقاعدة سمكية مما يسمح بتوفير منتج مهم وثن منخفض، كما يستجيب لمتطلبات الطلب الوطني ويمكن من توفير السمك للمناطق الداخلية الاسبانية دون نسيان التصدير نحو الخارج الذي سيوفر معاهدات تجارية بيننا وبين باقي البلدان الشريكة"¹³ لذا نجد بعد تمركز الاسبان في الداخلة بدأوا في استقطاب بعض الصيادين المحليين خصوصا الملاحين خصوصا فئة الشباب، ذلك ابتداء من سنة 1910 إثر قانون كناري يمنع على صغار السن من أبناء الأرحبيل الإبحار في قوارب الصيد، وتوجيههم بدل من ذلك إلى الدراسة.

¹¹ كوفيا: هي دقيق الذرة المستعمل كمشروب أو عصيدة.

¹² -Possessions Espagnoles: in l' Afrique Francaise, n7 juillet 1933,p.416.

¹³ -Nunez, Jorge, Bases pesqueras en Riode Oe: In Afrca, n 92-93, agosto,1949,p20.

وقد خلق إيمراكن علاقات تجارية مع الشركة العابرة للأطلنطيكى (Compagnie transatlantique)، سواء كصيادين أو معالجين للسماك من تلميح وتخفيف كل هذه العوامل ساهمت في الزيادة في استنزاف الثروة السمكية للمنطقة، وقد راكبوا بالخصوص الزوارق الشراعية التي كانت تمر على جميع النقاط الغنية بالأسماك بشاطئ وادي الذهب، ويظهر أن الصيد الجديد كان يمارس بواسطة الزوارق الشراعية أو بالرسو على بعد من الساحل القاري خصوصا بتفاوت 12 إلى 15 ميلا وعلى عمق يناهز ما بين 45 و 70 مترا. وكل شراعيه أوقارب خفيف (قارب دقيق المقدمة ومرتفع الهياة) يتعد في الصباح داخل البحر للبحث عن السمك دون أن يحتجب عن القارب الام الذي يعود إليه عند الليل وعندما يكون السمك كثيرا نجد أن الزوارق الشراعية تقترب من الساحل قبل غروب الشمس بقصد الرسو لإعداد السمك المصطاد خلال اليوم. أما بخصوص الطعم (Appat) فقد كان يستعمل كل الأسماك الصغيرة المصطادة ك: السردين المسمى: (longarona)، (la chopa)، (le garapello)، (la hurta)...

دون نسيان أنهم كانوا يجوبون المنطقة من رأس بوجدور إلى الكويرة وقد ساعدهم ذلك مجموعة من الظروف المناخية لعل من أبرزها هدوء المناخى خصوصا ما بين شهري يوليوز وأكتوبر، وقرب جزر الكناري مما يساهم في التنقل السريع للسمك في حالته الطرية، أو تلميحه في عين المكان .

وقد عرفت ساحل وادي الذهب ظهور الشركة الصناعية للصيد (Société Industrielle de la Grande pêche) تتكون في طاقمها من بعض الاطر الفرنسية إلى جانب أرباب وطاقم كناري، دون نسيان بعض الأهالي المدجين قصد تكوينهم مهنيًا، ولها وحدتان بالمنطقة حيث تم تولية رأستهما لبعض المحاريين من رض الساحل: الناجي ولد المكناش من أهل لغزال، والشيخ ولد أي من أولاد دليم، لكن نتيجة ظروف جد قاهرة تراجعت هذه الشركة نتيجة الحرب الاسبانية وكذا المنافسة.